مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

يذكر الله تعالى أنه: يَسُوقُ السَّحَابَ بقُدرته أوَّل ما يُنشئها وهي ضعيفة، وهو "الإزجَاء" ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ أي: يجمعه بعد تَفرُّقه ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ أي: مُتراكماً بعضُه على بعضٍ ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ أي: المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ يُحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ ﴾ أي: بما ينـــزلُ من السماء من نوعي المطر والبَرَد، فيكون قولُه: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ رحمةً لهم، ﴿ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ أي: يُؤخِّرُ عنهم الغيثَ. ويُحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ ﴾ أي: بالبَرَد نقمةً على مَن يشاء؛ لما فيه من نَثْرِ ثمـــارهم، وإتلافِ زُروعِهم وأشجارهم

(١) النور: ٤٣، ٤٤.

﴿ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ رحمةً بهم.

وقولُه: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي: يكاد ضوءُ بَرْقِه - من شِدَّته - يخطفُ الأبصارَ إذا اتبعته وتَرَاءَتْهُ.

وقوله تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أي: يتصرَّف فيهما، فيأخذ من طُولِ هذا في قِصَرِ هذا؛ حتى يعتدلا، ثم يأخُذ من هذا في هذا، فيطُولُ الذي كان قصيراً، ويَقْصر الذي كان طويلاً. والله هو المتصرِّف في ذلك بأمره وقَهْره، وعِزَّته وعِلمه ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ أي: لَدَليلاً على عظمته تعالى. كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [1]

ذاكَ ما ذكره الإمامُ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن

(١) آل عمران: ١٩٠- ١٩٤.

جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ ومَن تدبَّرَ التناسبَ بين ما جاء في هذه الآياتُ وما جاء قبلَها، من قوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [1] مَن تدبَّر ذلك عرف حكمةَ ما أخبر الله به من واقعٍ منظورٍ مُشاهَدٍ، تُرى حقيقتُه، وتُعرَف آثارُه ونتائجُه في قولـه: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ﴾.

والفائدة من ذلك: أن يُحقق الإنسانُ حكمةَ خَلقه وغايةَ وجوده، ويعمل لما خُلِقَ من أجله، وهو يرى آياتِ الله المنـزَّلة عليه تتَّسق مع آيات الله في الآفاق وفي الأنفس في مخاطبته وتذكرته؛ لتظل التبصرةُ قائمةً في حياة الإنسان لا تُبارحـه ولا تنفكُّ عنه ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾ ﴾ [2]

إن الإنسان قد خُلِقَ لغاية. وأولوا الألباب - وهم يتفكرون في اختلاف الليل والنهار، وما خَلَقَ الله من شيءٍ - يعملون لما تُرشدهم إليه آياتُه، فيذكرون ربَّهم في

(١) النور: ٤١، ٤٢.
(٢) الفرقان: ٦١، ٦٢.

جميع أمرِهم: قياماً، وقُعوداً، وعلى جُنوبهم، ويقولون - وهم يتفكرون -: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [1] فتكون آيات الله في الآفاق وفي الأنفُس معينةً لهم على اتِّباع الحق، داعيةً إليه.

وهكذا كان تدبُّر رسول الله ﷺ. فقد روى البخاريُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ. اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ. فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ. أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ. لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ » [2]

هكذا يكون تدبُّر القرآن علماً وعملاً، وهكذا كان لرسول الله منهجاً وخُلقاً.

فطوبى لمن اقتدى به، واتَّبع النورَ الذي أُنزِلَ معه ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [3]

---

(١) آل عمران: من الآية ١٩١.

(٢) البخاري: كتاب الجمعة، باب التهجد بالليل، رقم ١٠٥٣.

(٣) الأعراف: ١٥٧.